مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية
Ibn Khaldon Center for Humanities and Social Sciences

دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press

OPEN ACCESS

Submitted: 15 January 2019
Accepted: 26 February 2019

ملف العدد: النص القرآني واللغة العربية

لغة القرآن ورؤيته للعالم أساس منهجي لبناء المفاهيم
«مفهوم التعارف نموذجًا»

شيماء فوخري
باحثة بمركز دكتوراه: مجالات، مجتمعات، ثقافات، وحدة: الفكر الإسلامي المغربي: الخصائص المنهجية والتحديات المعرفية، جامعة الحسن الثاني بالدار البيضاء، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، المحمدية، المغرب
chaymae.chama1994@gmail.com

ملخص

يُعنَى هذا المقال بالبحث في المفهوم القرآني بين الرؤية القرآنية للعالَم ورؤية العربي له، وينطلق في معالجته للموضوع من إشكاليّة «تمعين» النص القرآني، أي إمداد النص القرآني بالمعنى عوض استمداد المعنى من القرآن، وهو ما يثيرُ إشكالًا رئيسًا هو: هل المفاهيم التي نتداولها وتوصف ب «المفاهيم القرآنية» هي مفاهيم قرآنية حقا بكل ما يحمله وصف (قرآني) من دلالة، أم أنها بناء لغوي ليس له من القرآن إلا اللفظ بينما المعنى الذي مُلئَ به اللفظ وشكّل المفهوم هو صناعة وصياغة إنسانية عربية بحتة ؟

للإجابة عن هذا السؤال تنطلق الدراسة من نموذج «التعارف»، باعتباره مفهوما قرآنيا فتبحث في معناه القرآني وتقارنه بالمعنى الذي صاغه المتلقي لهذا المفهوم، مقارنة تنفذ إلى الأُسُسِ المنهجية التي أقيم على وفقها المفهوم القرآني، والمتمثلة في لغة القرآن الخاصة ورؤيته للعالم؛ والأسس التي أنتجت المفهوم الإنساني، العربي، والمتمثلة في لغة العرب ورؤية العربي للعالم وذلك باعتماد المنهج التحليلي والمنهج المقارن، تحليلا لعملية تلقي المعنى القرآني من خلال كتب التفاسير ومقارنة للموجود التفسيري بالمنشود القرآني.

يخلص البحث إلى نتائج يمكن أن نُجمِلها في ضرورة التمييز بين المثال القرآني والتمثل الإنساني لتحرير المفهوم القرآني من الفهم الإنساني، وذلك بإعادة بناء المفاهيم القرآنية في ضوء النظام القرآني: لغة ورؤية للعالم، حفاظًا على الكثافة والحركة والحياة للألفاظ القرآنية، وهي الخصائص التي يفقدها اللفظ القرآني حين يُعبّأ بالمعنى، وهو ما يظهر جليًا حين المقارنة بين المفهوم القرآني للفظ التعارف والمفهوم العربي له.

الكلمات المفتاحية: المفهوم القرآني، النظام القرآني، التعارف، رؤية العالم، لغة القرآن

للاقتباس: فوخري ش.، «لغة القرآن ورؤيته للعالم أساس منهجي لبناء المفاهيم "مفهوم التعارف نموذجًا "»، مجلة تجسير، المجلد الأوّل، العدد الأوّل، 2019

https://doi.org/10.29117/tis.2019.0009

© 2019، فوخري، الجهة المرخص لها: دار نشر جامعة قطر. تم نشر هذه المقالة البحثية بواسطة الوصول الحر ووفقًا لشروط Creative Commons Attribution license CC BY 4.0. هذه الرخصة تتيح حرية إعادة التوزيع، التعديل، التغيير، والاشتقاق من العمل، سواء أكان ذلك لأغراض تجارية أو غير تجارية، طالما ينسب العمل الأصلي للمؤلفين.

دار نشر جامعة قطر
Qatar University Press

مركز ابن خلدون للعلوم الإنسانية والاجتماعية
Ibn Khaldon Center for Humanities and Social Sciences

OPEN ACCESS
Submitted: 15 January 2019
Accepted: 26 February 2019

The Quranic Language and its Vision of the World as a Methodological Basis for Building Concepts

The case of the concept of “acquaintance” (Ta’arof)

Chaymae Fouikhri
Researcher in the Center for Doctoral Studies: Fields, Societies, Cultures. Unit: Moroccan Islamic Thought: Methodological Characteristics and Knowledge Challenges, Hassan II University, Faculty of Literature and Human Sciences, Mohammedia, Morocco.
chaymae.chama1994@gmail.com

Abstract

This study explores the Quranic concept and the Quranic and the Arab’s perception of the world. It is based on the problematic of “providing a meaning” to the Quranic text by supplying it with a meaning instead of drawing the meaning from it. This raises the fundamental problematic of whether the concepts dealt with are really “Quranic concepts” as described, or are they linguistic constructions that have nothing to do with the Quran, and the meaning filling the word and shaping the concept is a purely Arabic coinage?

In order to answer this question, the study starts from the “acquaintance” model as a Quranic concept. It examines its Quranic meaning and compares it with the meaning formulated by the recipients of this concept. This comparison delves into the methodological foundations, which are represented in the language of the Quran and its conception of the world, as well as the foundations that produced the human and Arabic concept represented in the Arabic language and the Arab’s perception of the world by adopting the analytical and comparative approaches. This study analyzes the process of receiving the Quranic meaning through the interpretation books and compares the reception process between supplying and extracting the meaning from the Quran.

The study findings highlight the need to distinguish between the Quranic term and its human representation to liberate the Quranic concept from the human understanding by reconstructing the Quranic concepts in the light of the Quranic system: the language and perception of the world, in order to preserve the fullness, movement and life of the Quranic terms. These characteristics are lost when the Quranic term is loaded with meaning, which is evident when comparing the Qur’anic concept of the word “acquaintance” and its Arabic meaning.

Keywords: Quranic concepts; Quranic system; Acquaintance; Perception of the world; Language of the Quran

للاقتباس: فوخري ش.، «لغة القرآن ورؤيته للعالم أساس منهجي لبناء المفاهيم "مفهوم التعارف نموذجًا "»، مجلة تجسير، المجلد الأوّل، العدد الأوّل، 2019

https://doi.org/10.29117/tis.2019.0009

© 2019، فوخري، الجهة المرخص لها: دار نشر جامعة قطر. تم نشر هذه المقالة البحثية بواسطة الوصول الحر ووفقًا لشروط Creative Commons Attribution license CC BY 4.0. هذه الرخصة تتيح حرية إعادة التوزيع، التعديل، التغيير، والاشتقاق من العمل، سواء أكان ذلك لأغراض تجارية أو غير تجارية، طالما ينسب العمل الأصلي للمؤلفين.

مقدمة

تمثل المفاهيم في عمقها ذاكرة معرفية تختزن بين ثناياها أنموذجَ النظام المعرفي الذي ينتظم فكر الجماعات المنشئة للمفهوم، ولذلك فإن المفهوم لم يكن يومًا محض بناء لغوي ولا مجرد اشتقاق لفظي، بل هو سجل ومستودع معرفي تُخزّن فيه بيانات عقل الأمة. ولما كان الأمر كذلك، كانت عملية تفكيك المفاهيم على الظاهر عمليةَ تفكيك للبنى اللغوية وفي العمق عملية تفكيك للبنى العقلية والأنساق المعرفية التي ينتمي لها المفهوم، وكان بناء المفاهيم بناءً لعقل الأمة، وهندسة المفاهيم هندسة للبنى العقلية للأمة[1]. فإذا كانت الأمم دائمة السعي إلى بناء العقل فإن من أهم مداخل هذا البناء؛ بناء المفاهيم لكونها تمثل النواة الأولى في صناعة الأفكار التي تشكل بدورها وعي المجتمعات.

ولذلك لفت الشارع الحكيم الانتباه إلى ضرورة انتقاء اللفظ المعبّر به. يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: 104]. إن المسألة في هذه الآية أكبر من مجرد النهي عن التشبه باليهود في مقالهم[2]، إن المسألة هنا مسألة تقويم للعقل. إن لفظًا صغيرًا هو {راعنا} قد يستبطن في أعماقه نظامًا معرفيًا يناقض النظام الذي جاء القرآن ليرسيه في العقل الإنساني، نظام الخلافة والاستخلاف لا نظام الرعي والرعية[3]. إن القضية هنا قضية تقويم للمجتمع انطلاقًا من إقامة المفهوم. من هنا، كانت عملية إقامة المفاهيم في مستواها الأول فن

1- طه جابر العلواني، **بناء المفاهيم دراسة معرفية ونماذج تطبيقية**، الجزء الأول، إشراف علي جمعة محمد وسيف الدين عبد الفتاح (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1998)، ص 7.

2- «قيل: كانت اليهود تقول للنبي صلى الله عليه وسلم راعنًا من الرعونة؛ من قولك للرجل: يا أرعن وللمرأة يا رعناء. وكان الحسن يقرؤها راعنا بالتنوين. وقال الكلبي: كان في كلام اليهود: راعنا سبا قبيحا؛ يسب بعضهم بعضا به، وكانوا يأتون محمدا صلى الله عليه وسلم فيقولون: راعنا، ويضحكون، فينهى المؤمنين عن ذلك خلافا لهم». ينظر: أبو منصور، محمد بن محمد بن محمود الماتريدي، **تأويلات أهل السنة**، الجزء الأول (بيروت: دار الكتب العلمية، 2005)، ص 529.

3- محمد أبو القاسم حاج حمد، **العالمية الإسلامية الثانية: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة** (بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، 2004)، ص 56.

وقد يتساءل القارئ هل نظام الرعي والرعية الذي جاء الحديث النبوي «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» دالًا عليه يناقض النظام الذي جاء القرآن ليُرسِيَه؟ وهو سؤال مشروع يفتح للتفكير أبعادًا أخرى إذ ينقدح في الذهن سؤال التناسب بين المعجم القرآني والمعجم النبوي، وفي إطار التسليم بالتوافق بين القرآن والسنة مبنى ومعنى باعتبار السنة تطبيقًا عمليًا للقرآن، والتسليم التام بحاكمية القرآن على السنة، يطرح سؤال مدى إمكانية تحليل متون الحديث بعرضها على اللغة القرآنية والنظام القرآني وهو ما يقترحه حاج حمد إذ يقول: فلغة الرسول صلى الله عليه وسلم تتوافق بالضرورة المنهجية مع لغة القرآن، لتوثيق وحدة المقاصد والمعاني، ولهذا جعلت من لغة القرآن المميزة مرجعًا لتوثيق (متن) الأحاديث أيًا كان سندها.

وإذا كان حاج حمد يرى أن هذا الحديث منسوب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول: فكيف يجيز البعض لنفسه إسناد حديث للرسول يتناقض في متنه مع منهجية القرآن وضوابط معانيه لمجرد انصرافه إلى السند وليس المتن فإني أرى غير ما رآه، ذلك أن الأجوبة التي يجب أن نقدمها جوابًا على سؤال التناسب بين الحديث النبوي ومنهجية القرآن المعرفية لا ينبغي أن تنصرف ابتداء إلى طرح الحديث جانبًا ولا إلى التضحية بمنهجية القرآن المعرفية مقابل الحفاظ على الحديث، بل ينبغي أن تقدم مجموعة من الفرضيات التي تفسر وجود هذا الحديث دون التشكيك في صحته، ومن ثم تمحيص هذه الفرضيات لاستبانة التفسير الأرجح لوجود تعبير الرعية في القاموس النبوي حتى إذا استحال ذلك على الإطلاق كان الحاكم والمرجع هو القرآن.

إن الفرضيات التي يمكن أن تفسر وجود معجم الرعي ضمن التعبير النبوي هي كالتالي:

الفرضية الأولى: أن يكون الحديث قد نقل بلفظ الرعية مع أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله بغير ذلك اللفظ فتكون الرواية آنذاك قد تمت بالمعنى فظُنَّ أن تعبير الراعي والرعية يحقق المطلوب، ما دام قد رسخ في المجتمع آنذاك مبدأ الشورى الذي يتعارض مع الدلالة الأصلية لمفردات الراعي والرعية، فتكون بذلك منهجية القرآن المعرفية وآية «لا تقولوا راعنا» قد رسخت في المجتمع إلى الحد الذي أدى إلى انزياح مفهومي بات معه مفهوم الرعاية يحمل دلالة النظر بحيث قضى القرآن على الدلالة الأصلية التي تحملها ألفاظ «راعي» و «رعية» وحلت مادة «نظر» في مادة «رعي» وهو الأمر الذي لم يرُده القرآن إذ دعا إلى ترك اللفظ ودلالته وذلك لأن الدلالات الأصلية للألفاظ سرعان ما تستعيد عافيتها ليعود المفهوم إلى ما كان عليه أول مرة.←

الفرضية الثانية: أن يكون النبي عليه الصلاة والسلام قد قال الحديث بلفظ الراعي والرعية وهو أمر ممكن في حالة واحدة هي أن يكون الحديث قد قيل قبل نزول النهي عن قول «راعنا» فاستمرت روايته بهذا اللفظ حتى بعد نزول النهي للأسباب التي ذكرتها في الفرضية الأولى والمتعلقة بالانزياح المفهومي.

وإذا كانت الفرضية الثانية صحيحة فإنها تفتح الباب أمام البحث في تطور المعجم النبوي تدريجيًا جراء نزول القرآن منجمًا، وهذا ما يمكن أن يظهر حقيقة «تثبيت الفؤاد» وهو ما يمكن أن يؤكد المصدرية العليا للقرآن ويضع فرضية أن يكون القرآن «من تأليف محمد» في موضع شك حتى من واضعيها.

عمارة لغوي[4] وفي العمق نهوضا بالعمران البشري.

ولأن القرآن الكريم هو دستور مؤسس للعقل الإسلامي والإنساني عمومًا، ولأن المفاهيم القرآنية هي مفاهيم تؤثث البنية العقلية للمجتمعات العربية والإسلامية على وجه الخصوص، فإن إقامة هذه المجتمعات وإعادة بنائها رهين بتقويم هذه المفاهيم تمثّلًا وتمثيلًا. ولذلك جاء هذا البحث ليستعرض مفهومًا من المفاهيم المحورية في القرآن وهو مفهوم التعارف، وذلك من خلال النظر في كتب التفسير ورصد ما قدمته هذه المدونات من معنى لهذا المفهوم ومن ثَمَّ عرض محاولات «التمعين» تلك، على الرؤية القرآنية قصد تحصيل إجابة عن فرضية انطلق منها البحث تقول:
{إذا كان القرآن الكريم ينحت أمثل المفاهيم ويقدمها للإنسانية فإن تمثّلنا وتمثيلنا لهذه المفاهيم قد لا يكون على نفس القدر من المثالية التي نزل بها المفهوم القرآني أول مرة، ويحدث هذا الشرخ بين المثال القرآني والتمثل الإنساني حين تغيب عنا أثناء البحث في المفهوم القرآني الأسس المنهجية القرآنية التي كانت وراء إقامته}.

مشكلة البحث

إن السؤال الذي ينبغي أن نطرحه ونحن نبحث في المفهوم القرآني هو: هل حفظنا للمفاهيم القرآنية صبغتها القرآنية؟ أم أن تمثلنا للمفهوم القرآني قد تلبس بثقافتنا؟ فكانت النتيجة أن أسقطنا فهمنا على المفهوم القرآني؟ وبصياغة مختصرة هل وافق الفهم الإنساني المفهوم القرآني؟
إن عملية تمثل المفهوم القرآني – وباعتبار القرآن خطابًا يتحقق عنده وبالضرورة التفاعل بين الإرسال والتلقي– يمكن أن تكون عملية يستمد فيها المجتمع ثقافته من القرآن، كما يمكن أن تكون عملية يمد فيها المجتمع القرآن بثقافته، ولذلك فإن الحديث عن مفهوم التعارف لا بد أن يعيد للواجهة سؤال العلاقة بين الصبغة القرآنية للمفهوم والصياغة الإنسانية له، بحثًا عن نقاط الاتفاق والافتراق بين الصبغة والصياغة.

إن الجواب عن هذه الإشكالات لا يكون إلا بعرض المفاهيم القرآنية على الأسس المنهجية القرآنية التي بُني وأقيم وفقها المفهوم القرآني أول مرة، لتحديد ما إذا كان المفهوم القرآني قرآنيًا أم غير ذلك، وهو ما يستدعي الوقوف على الكيف الذي به أقام القرآن المفاهيم، أو ما يمكن أن نسميه – استعارة– فن العمارة اللغوي في القرآن.

هدف البحث وأهميته والمنهجية المعتمدة

إن الهدف الذي يرمي إليه البحث يتجلى في الوقوف على الأسس المنهجية التي أقيمت وفقها المفاهيم القرآنية، وذلك بغية استخلاص مفهوم قرآني خام للتعارف، يتسق مع النظام القرآني ومنهجية القرآن المعرفية ويبرز من خلاله البون الشاسع بين المفهوم المتين في صبغته القرآنية والمفهوم الهزيل في صياغته البشرية. ولتحقيق هذا الغرض فقد اعتمدت في البحث المنهجين التحليلي والمقارن، حيث وقفت على تفسير آية التعارف عند بعض المفسرين، قصد تحليل نصوص التفسير والوقوف من خلالها على الكيفِ الذي به بنى المفسر مفهوم التعارف، وذلك استجلاءً لملامح الرؤية التي أطرت الممارسة التفسيرية ومن ثم مقارنتها بالرؤية القرآنية التي كان من المفترض أن تؤطر عملية التلقي والتفسير، تحليلًا للعملية التفسيرية ونقدًا لها بهدف التصويب وتصحيح المسار.

4- سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل، **بناء المفاهيم دراسة معرفية ونماذج تطبيقية**، الجزء الأول، إشراف علي جمعة محمد وسيف الدين عبد الفتاح (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1998)، ص 29.

الدراسات السابقة

إن طبيعة هذا البحث المتضمن لشق نظري يعالج مسألة بناء المفاهيم القرآنية، وشق تطبيقي يعالج مسألة إقامة مفهوم قرآني للتعارف، تقتضي استدعاء الدراسات السابقة في الشقين كليهما: شق بناء المفاهيم وشق إقامة مفهوم التعارف.

أما الدراسات السابقة في موضوع بناء المفاهيم فهي على حد اطلاعي:

بناء المفاهيم: دراسة معرفية ونماذج تطبيقية

وقد تضمن هذا الكتاب الجماعي مجموعة من المقالات المؤطّرة لعملية بناء المفاهيم نذكر منها:

- مقدمة أساسية حول عملية بناء المفاهيم، د. سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل[5].

وهي ورقة تقف عند أهمية قواعد التأسيس في عملية بناء المفاهيم وأهم تلك القواعد – كما يؤكد صاحبها – هو عدم التعامل مع المفاهيم على أنها كتل صماء، ذلك أن بناء المفهوم ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار طبيعة المفاهيم وسياقات استعمالها وغير ذلك من التفاصيل التي تحدد قواعد الهندسة والعمارة المفاهيمية.

- توضيح المفاهيم ضرورة معرفية، د. صلاح اسماعيل عبد الحق[6].

وقد شدّد هذا المقال على ضرورة توضيح المفاهيم، كما أثار مجموعة من المشكلات التي تكشف عنها عملية إيضاح المفاهيم مثل الحراك المفهومي والاحتلال المفهومي، وهي الظواهر التي تحول في معظم الأحيان دون إقامة المفهوم، مقدمًا مجموعة من القواعد الدلالية التي تحكم التعامل الصحيح والدقيق مع المفاهيم.

- بناء المفاهيم الإسلامية ضرورة منهاجية، د. سيف الدين عبد الفتاح إسماعيل[7].

ويمكن استشفاف الفكرة المحورية التي يدور حولها المقال من عنوانه، وهي بناء المفاهيم الإسلامية تحقيقًا للهوية وتأكيدًا على التمايز بين المنظومة الإسلامية وغيرها من المنظومات، في المصدر والوسائل والغايات، مع الإشارة إلى خصائص المفاهيم الإسلامية والتي ينبغي أخذها بعين الاعتبار حين بناء المفهوم الإسلامي.

إن ما يمكن أن نسجله من ملاحظات حول هذا الكتاب الجماعي أو هذا المشروع باعتباره كتابًا يضم مجموعة من الدراسات التي يمكن اعتبارها دراسات سابقة في موضوع هذا البحث، هو أنه أرضية يمكن الانطلاق منها والتأسيس عليها حين البحث في المفاهيم، لكونه يقدم رؤى مجموعة من الباحثين الذين انغمسوا في مجال إقامة المفاهيم، فهو يطوي المسافات إذ يقدم المعرفة المعززة بالخبرة، إلّا أن ما يمكن أن يعتبر غائبًا في هذا الكتاب هو الحديث عن بناء المفاهيم القرآنية وما لها من خصوصية في عملية إقامة المفاهيم ومن أهمية في عملية تقويمها.

وأما الدراسات السابقة في موضوع «التعارف» فهي على حد اطلاعي:

- التعارف والاعتراف والمصالحة، عبد الرحمن السالمي[8].

وهي مقالة افتتاحية تجلي العلاقة بين ثلاثية التعارف والاعتراف والمصالحة التي ينبغي – ومن وجهة نظر الكاتب – أن تسود العلاقات الإنسانية، تعرفًا على الآخر واعترافًا به وتحقيقًا للمصالحة معه في ظل العيش المشترك.

- منزلة التعارف والاعتراف في منظومة القيم القرآنية، احميده النيفر[9].

يناقش المقال التعارف باعتباره قيمة قرآنية تجسر – وفق الرؤية القرآنية – العلاقة مع الآخر في ظل الاختلاف معه، فتؤسس في مستواها الأول للتعرف على الآخر المخالف، وتنفذ في مستوى ثان إلى الاعتراف بالآخر وبخصوصيته، باعتبار

5- المرجع نفسه، ص 27-30.

6- المرجع نفسه، ص 31-51.

7- المرجع نفسه، ص 53-103.

8- عبد الرحمن السالمي، «التعارف والاعتراف والمصالحة التفاهم»، **التفاهم العمانية**، العدد 36 (2012)، ص 7-11.

9- احميده النيفر، «منزلة التعارف والاعتراف في منظومة القيم القرآنية»، **التفاهم العمانية**، العدد 36 (2012)، ص 13-34.

أن مقاربته المختلفة عنا مثرية لنا وللتوازن الثقافي الكوني.

- الإسلام والديانات الإبراهيمية بين التعارف القرآني والتجربة التاريخية، عزالدين عناية[10].

يرصد المقال التجربة التاريخية للإسلام في علاقته مع الديانات الإبراهيمية وما تستبطنه هذه التجربة من حضور للتعارف، هذه القيمة التي حضرت باعتبارها قيمة مستبطنة في التجربة الإسلامية الكلية، وغابت في بعض اجتهادات الفقهاء، بات من الضروري تسليط الضوء عليها فتحًا للأفق الإنساني الرحب.

إن ما يمكن استدراكه على هذه المحاولات التأسيسية لقيمة التعارف هو قفزها على الاستكشاف المتأني للمعنى القرآني للتعارف، فالحديث عن مركزية التعارف وأهميته في تجسير العلاقة مع الآخر لا يمكن أن يحقق المتوخى منه ما لم يُجَلَّ مفهوم التعارف قرآنيًا، وما لم يوضح الفرق الشاسع بين عمق المفهوم القرآني للتعارف وسطحية المفهوم السائد، وبين عمق دلالة التعارف وسطحية المصطلحات المقابلة له خارج الجهاز المفاهيمي القرآني.

أولًا- المفهوم: بين المثال القرآني والتمثل الإنساني

إننا حين نقرأ القرآن في أغلب الأحيان نقارب لغته مقاربتنا للغة العرب، فنقرأ القرآن دون أن نستحضر أن لغته تتحد مع لغتنا العربية في الجهاز وتختلف عنها تماما في الإنجاز[11].

نقرأ القرآن في كثير من الأحيان دون أن نستحضر أن: «بلاغة البيان تعلو على قدر علو المبيِّن، فعلو بيان الله على بيان خلقه بقدر علو الله على خلقه»[12].

1- لغة القرآن ولغة العرب: اتحاد في الجهاز وافتراق في الإنجاز

إن الفرق بين فن العمارة اللغوية القرآني في إقامة المفاهيم وفن العمارة اللغوية الإنساني هو كالفرق بين فن العمارة الإلهية في الكون وفن العمارة الإنسانية في الأرض؛ إنه الفرق بين الحياة الأبدية والحركة الدائمة وبين الحياة الفانية والجمود.

إن الخصائص التي تتميز بها العمارة الإلهية المتمثلة في الكواكب والمجرات والأجرام وغيرها هي: الحركة الدائمة والحياة النابضة والتجدد الذاتي المستمر، وهي خصائص تفتقر إليها العمارة الإنسانية الجامدة التي يُفنيها الزمان وتبليها المتغيرات. وكذلك هي المفاهيم؛ فاللفظ والمفهوم القرآني هو جرم يكتنز طاقة متنامية وحياة نابضة. إن اللفظ القرآني أكبر من مجرد لفظ كثيف المعنى، إنه نجم لغوي نشط تتنامى كثافته بحركته الداخلية فينمو داخل الزمان ليستوعب كل زمان.

2- التعارف: بين الرؤية القرآنية للعالم والرؤية العربية للعالم

من هنا كانت إعادة النظر في المفاهيم القرآنية حاجة معرفية وضرورة منهجية، خاصة إذا تعلق الأمر بالمفاهيم الكبرى المنظمة للاجتماع البشري، ولعل من أبرز هذه المفاهيم: مفهوم التعارف.

يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:13]. إن المتتبع لماهيّة التعارف انطلاقًا من كتب التفسير يجد أن معناه لم يخرج عند المفسرين عن تعارف الناس بعضهم ببعض أو لنقُل تعارف القبائل بعضها ببعض.

10- عز الدين عناية، «الإسلام والديانات الإبراهيمية بين التعارف القرآني والتجربة التاريخية»، **التفاهم العمانية**، العدد 36 (2012)، ص 35-51.

11- لمزيد من التعمق في المسألة ينظر: سعاد كوريم، **سنة اللسان بين الجهاز والإنجاز وأثرها في تعيين القصد الشرعي**، أطروحة دكتوراه تحت إشراف محمد السيسي، (مكناس: جامعة مولاي إسماعيل- كلية الآداب والعلوم الإنسانية، السنة الجامعية: 2011-2012).

12- أبو الحسن الحرالي المراكشي، **تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير** (الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1997)، ص 29.

جاء في تفسير الطبري: «وجعلناكم متناسبين، فبعضكم يناسب بعضًا نسبًا بعيدًا، وبعضكم يناسب بعضًا نسبًا قريبًا فالمناسب النسب البعيد من لم ينسبه أهل الشعوب، وذلك إذا قيل للرجل من العرب: من أيّ شعب أنت؟ قال: أنا من مضر، أو من ربيعة. وأما أهل المناسبة القريبة أهل القبائل، وهم كتميم من مضر، وبكر من ربيعة، وأقرب القبائل الأفخاذ وهما كشيبان من بكر ودارم من تميم، ونحو ذلك»[13].

وقال الماتريدي: «{ لتعارفوا } أي جعل فيكم هذه القبائل ليعرف بعضكم بعضًا بالنسبة إلى القبائل والأفخاذ؛ فيقال: فلان التّيميّ، والهاشميّ»[14].

وقال البقاعي: «{ لتعارفوا } أي ليعرف الإنسان من يقاربه في النسب ليصل من رحمه ما يحق له، لا لتواصفوا وتفاخروا»[15]. والمتتبع لما أورده المفسرون من معان للتعارف لا بد وأن ينقدح في ذهنه سؤال بناء المفهوم؛ كيف بنى المفسر مفهوم التعارف؟ أو لنقل كيف بنى المتلقي للآية مفهوم التعارف؟

إن تأمل ما أورده المفسرون فيما يتعلق بمفهوم الشعوب والقبائل والتي دار معناها في معظم كتب التفاسير حول مضر وربيعة وبني تميم وبني هاشم وغيرها من قبائل العرب، يجعلنا نتساءل حول طبيعة علاقة المفسر بالعالم وبتعبير أدق عن طبيعة رؤية المفسر للعالم؛ فهي إما أن تكون رؤية منطلقها القرآن حيث يرى المفسر العالم من خلال القرآن، وإما أن تكون رؤية منطلقها العالم حيث يرى المفسر القرآن من خلال العالم. إن اقتصار جل المفسرين على القبائل العربية للتمثيل للشعوب والقبائل يجعلنا نستنتج أن المفسر والمتلقي عمومًا إنما كان يرى القرآن، أو لنقل كان يرى هذه الآية على الأقل، من خلال نموذجه الثقافي الذي رسخه في ذهنه واقعه وثقافته، فكان يفسر القبيلة والشعب انطلاقًا من محيطه لا انطلاقًا من الغوص المعرفي في القرآن لاستخلاص معنى قرآني خام للمادة اللغوية.

والغريب أن المفسرين من غير العرب لم يتميزوا عن العرب في تفسيرهم لمفردتي الشعوب والقبائل، وإن كان المنتظر منهم أن يستحضروا عالمية الخطاب القرآني لأنهم وبحكم أعجميتهم الأكفأ على استشعار معنى عالمية الخطاب. فها هو السمرقندي يفسر الشعوب والقبائل بقوله: «وجعلناكم شُعُوبًا وَقَبَائِلَ يعني: رؤوس القبائل، مثل مضر، وربيعة {وَقَبَائِلَ} يعني: الأفخاذ مثل بني سعد، وبني عامر»[16]. وها هو الزمخشري يجلي معنى الشعب والقبيلة بقوله: «الشعب: الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب، وهي: الشعب، والقبيلة، والعمارة، والبطن، والفخذ، والفصيلة؛ فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع العمائر، والعمارة تجمع البطون، والبطن تجمع الأفخاذ، والفخذ تجمع الفصائل: خزيمة شعب، وكنانة قبيلة، وقريش عمارة، وقصى بطن، وهاشم فخذ، والعباس فصيلة، وسميت الشعوب؛ لأنّ القبائل تشعبت منها»[17]. ولعلنا بعد هذين النصين تنقدح في أذهاننا فرضية أن يكون المفسر قد ورث القرآن وورث معه رؤية المفسر العربي للعالم وللقرآن!

إن القضية هنا ليست فقط قضية مرتبطة برؤية المفسر للقرآن انطلاقًا من عالمه، إن القضية هنا قضية استعارة عين العربي لمقاربة القرآن والعالم معا، إننا أمام عقل عربي يُنَصَّب باعتباره منظومة مرجعية يفكر العالم الإسلامي من خلالها[18]. من هنا كان سؤال رؤية العالم ركنًا أساسًا في إعادة صياغة المفاهيم، حتى نتبين المفهوم القرآني من المفهوم

13- أبو جعفر الطبري، **جامع البيان في تأويل القرآن**، الجزء 22، تحقيق أحمد محمد شاكر (دمشق: مؤسسة الرسالة، 2000)، ص 309.
14- محمد بن محمود الماتريدي، **تأويلات أهل السنة**، الجزء 9 (بيروت: دار الكتب العلمية، 2005)، ص 337.
15- برهان الدين البقاعي، **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**، الجزء 18 (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، 1984)، ص 382.
16- أبو الليث السمرقندي، **بحر العلوم**، الجزء 3 (بيروت: دار الكتب العلمية، 1993)، ص 329.
17- أبو القاسم الزمخشري، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، الجزء 4 (بيروت: دار الكتاب العربي، 1987)، ص 374.
18- وهو ما أشار له محمد عابد الجابري بقوله: الأعرابي صانع العالم العربي، ينظر: محمد عابد الجابري، **تكوين العقل العربي** (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2000)، ص 71.

العربي. إننا جميعًا وبعد الوقوف على رؤية المفسر للقرآن وللعالم انطلاقًا من محيطه حينًا وانطلاقاً من {العربي المرجع} أحيانًا أخرى، نتساءل عن الأسباب الكامنة وراء تراجع رؤية القرآن للعالم أمام رؤية العربي للعالم في ذهن المفسر والمتلقي للمفهوم القرآني.

3- حاكمية القرآن وسؤال بناء المفهوم

إن الحديث عن العربي المرجع لا بد أن يخرج للوجود جملة من الاستشكالات أهمها: سؤال احتلال الثقافة العربية لذهن مفسر القرآن ومتلقيه واحتلال الفهم العربي للمفهوم القرآني.

جوابًا على هذا الاستشكال نورد نصًّا للإمام الغزالي، بهدف تفكيكه والوقوف على الأسباب التي كانت وراء هذا الاحتلال المفهومي[19].

يقول الغزالي: «إن للأشياء وجودًا في الأعيان ووجودًا في الأذهان ووجودًا في اللسان، أما الوجود في الأعيان فهو الوجود الأصلي الحقيقي، والوجود في الأذهان هو الوجود العلمي الصوري، والوجود في اللسان هو الوجود اللفظي الدليلي»[20].

فلكل شيء في الوجود إذًا وجود عيني ووجود ذهني ووجود لساني، وليكن الشيء الذي سنمثل له في هذا المقام هو {الشعب والقبيلة} في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13].

إن لكلمة {شعوبًا} وكلمة {قبائل} وجودًا عينيًا في المجتمع العربي، ووجودًا ذهنيًا في عقل المتلقي العربي، ووجودًا لسانيًا في لسان المتلقي العربي، غير أنه وبعد نزول هذه الآية بات لهذه الكلمة وجود رابع هو الوجود في اللسان القرآني.

إن عدم انتباه المتلقي للقرآن للنقلة النوعية التي أحدثها القرآن وهو ينقل الألفاظ العربية من التوظيف الإنساني إلى التوظيف الإلهي[21] جعل التلقي يقف بألفاظ القرآن عند المستويات الثلاثة: الوجود العيني في الواقع العربي والوجود الذهني في العقل العربي والوجود اللساني في اللسان العربي واعتمادًا على هذه المستويات الثلاثة كانت تتم عملية التفسير دون الانتباه إلى الوجود الأصلي في اللسان القرآني. والناظر إلى ثلاثية اللسان العربي والواقع العربي والعقل العربي التي فسر القرآن وبنيت مفاهيمه انطلاقا منها، يجدها مثخنة بالثقافة العربية، فأنّى للمتلقي إذًا أن يفلت من قبضة الرؤية العربية للعالم وقد أحيط بهذا السياج المنيع الذي يجعل الثقافة العربية صندوقًا لا سبيل للتفكير خارجه!

إن عملية إدراكنا للموجودات تتم عادة عبر السلسلة التي ذكرها الإمام الغزالي، فنحن نرى الأشياء في عالم الأعيان فتصبح حينها جزءًا من عالم أذهاننا لنطلق عليها فيما بعد اسمًا فتصبح بذلك جزءًا من عالم اللسان، وهكذا هو الحال مع جميع الموجودات، إلا أن القرآن وهو يسطر للناس خصيصة حاكميته[22] يقلب هذه السلسلة، فيصبح الوجود الأصلي للفظ القرآني هو الوجود في اللسان ثم الوجود في الأذهان ومن ثم الوجود في عالم الأعيان. إن خصيصة الحاكمية تجعلنا نفك الاقتران بين دلالات اللفظ القرآني ودلالة اللفظ العربي الذي قد يماثله مماثلة تامة في المادة اللغوية، وننطلق من المفهوم

19- أطلق صلاح إسماعيل مصطلح الاحتلال المفهومي على عملية تفريغ المفاهيم من دلالتها الأصيلة وملئها بدلالات أخرى، ينظر: سيف الدين عبد الفتاح وآخرون، **بناء المفاهيم دراسة معرفية ونماذج تطبيقية**، الجزء الأول (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1998)، ص 33.

20- أبو حامد الغزالي، **المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى** (قبرص: الجفان والجابي، 1987)، ص 25.

21- جلى أبو القاسم حاج حمد، الفرق بين التوظيف الإلهي للغة والتوظيف العربي لها في كتابه: محمد أبو القاسم حاج حمد، مرجع مذكور، ص 52.

22- لمزيد من التعمق في ماهية الحاكمية يحبذ الاطلاع على: طه جابر العلواني، **حاكمية القرآن** (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1996).

القرآني لتوجيه وصناعة مفاهيم إنسانية مسددة بالوحي الإلهي، ونعتبر لغة العرب منطلقًا لفهم القرآن دون أن نعتبرها منتهى للفهم.

وما ذكرناه عن الشعوب والقبائل من احتلال مفهومي للفظين ينسحب على قوله تعالى: {لتعارفوا} ويظهر ذلك جليا في مقاطع عديدة من تأويلات المفسرين نذكر منها:
جاء في تفسير الكشف والبيان: «{لِتَعَارَفُوٓاْ} أي: يعرف بعضكم بعضًا في قرب النسب، وبعده لا لتفاخروا»[23].
وقال ابن عبد البر: «في قول الله تعالى : {شعوبا وقبائل لتعارفوا}، دليل واضح على تعلم الأنساب»[24].
إن المفسر هنا وهو يجلي المفهوم، يحد من إمكانات لفظ التعارف لأنه يقارب مفهوم التعارف انطلاقًا من الرؤية العربية للعالم التي كان التعارف فيها رهينًا بمعرفة الأنساب فقط.

إن المداخل التي يقرأ العربي – ومن ورث عنه رؤيته– التعارف القرآني من خلالها هي: القبائل العربية وشعوبها والأنساب والتفاخر وهي عناصر تنتمي للبيئة العربية لا للبيئة القرآنية – إذا جاز لنا استخدام هذا اللفظ– وإذا كنا نروم بناء المفهوم القرآني فإن ذلك غير متأت ما لم نُجلّ الكيف الذي به نبني مفهومًا هو ابن البيئة القرآنية.

ثانيًا- التعارف القرآني: من تدبر منظومة الاستخلاف إلى تدبير قيمة الاختلاف

إن القرآن الكريم كتاب هداية، جاء ليهدي الناس إلى أقوم السبل التي ينبغي أن يسلكها المستخلفون لتحقيق الخلافة الراشدة والعمران الرشيد، ولذلك فإن المنظومة المعرفية التي يقدمها القرآن لا يمكن استيعابها استيعابا تاما إلا في الإطار العمراني الاستخلافي؛ فمفهوم الاستخلاف هو المحور الذي تسبح في فَلكه المفاهيم القرآنية كلها، وعلى أساس هذا المفهوم صيغت العلاقة بين عناصر الشبكات المفهومية التي يحويها القرآن الكريم. إن النظر إلى العالم عبر العين القرآنية يجعلنا نرى الإنسان محورًا للوجود، لكن محوريته تلك تضعه في منطقة التكليف قبل أن تضعه في موضع التشريف.

إن الرؤية القرآنية تدعونا إلى مقاربة المفاهيم القرآنية كلها مقاربة تستحضر مفهوم العمران والمهمة الاستخلافية التي جاء الإنسان ليؤديها في الكون. إن مفهوم التزكية والعبادة ومفهوم الزواج والمعروف والقصاص والقتال وغيرها من المفاهيم القرآنية، لا يمكن تمثلها التمثل الأقوم لتمثيلها التمثيل القيّم، إلا إذا صيغت في إطار نظام الاستخلاف الذي جاء القرآن ليرسيه. ولذلك فإن المدخل الرئيس لإعادة قراءة مفهوم التعارف في بيئته القرآنية هو النظر إليه عبر نافذة الاستخلاف.

1- تدبير الاختلاف مدخلًا لإعادة قراءة مفهوم التعارف

لقد خلق الله الإنسان ليؤدي المهمة الاستخلافية ويعمر الأرض، وقد آتى الله – عز وجل– الإنسان خصائص ذاتية تمكنه من ممارسة هذه المهمة وإعمار الأرض، وقد كان من بين هذه الخصائص وأعظمها {الاختلاف}؛ قال الله عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾[الروم: 22]. لقد قدم الله – عز وجل– اختلاف الألسنة والألوان[25] بين بني البشر على أنه آية من آياته، والناظر في جمال كوكبنا يجد أن ما أنجزه الإنسان من إبداع جمالي وإنجاز جلالي إنما مردّه إلى الاختلاف، ولولا هذا الاختلاف في هيئاتنا وفي ظواهرنا وفي ألسنة التفكير وألسنة التعبير بيننا، ما عُمّرت الأرض ولا أدى الإنسان مهمة الاستخلاف كما ينبغي.

23- أبو إسحاق الثعلبي، **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، الجزء 9 (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2002)، ص 88.
24- ابن عبد البر، الإنباه **على قبائل الرواة** (القاهرة: دار الفكر العربي، 1982)، ص 14.
25- لن نحمل اللفظتين «ألسنة» و«ألوان» على معناهما النسبي، اللغة ولون البشرة، وإنما سنحملهما على المعنى المطلق الواسع لأن الأصل في المعنى القرآني الصالح لكل زمان ومكان أن يبقى على سعته وإطلاقه، سنحمل اللون على معنى الهيئة، لأن اللون هيئة، وسنحمل اللسان على معنى: الجهاز المسؤول عن عملية الكلام (تفكيرًا وتعبيراً، تواصلاً واتصالاً) ، لأن اللسان هو جارحة الكلام.

إلا أن الاختلاف لم يكن دائماً آية من آيات الله ولذلك قال الله عز وجل: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾[هود: 118].

إن الاختلاف صنفان:

صنف هو مشيئة كونية وإرادة شرعية[26] لله عز وجل وهو الصنف الذي وصفه القرآن ب{الآية} في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالِمِينَ﴾؛ لأن ما كان آية لله – عز وجل– لا يمكن إلا أن تتعلق به الإرادتان الكونية والشرعية معًا، وصنف آخر هو مشيئة كونية دون أن يكون إرادة شرعيّة، ومثاله؛ أن الله شاء بمقتضى مشيئته الكونية أن يوجد الكفر، ولكنه وبمقتضى إرادته الشرعية أراد لنا الإيمان ولم يرد لنا الكفر. ولذلك قال الله – عز وجل: {ولا يزالون مختلفين} أي ولا يزالون مختلفين بمقتضى إرادة الله الكونية،{إلا من رحم ربك} أي إلا من رحمهم الله بالائتلاف بمقتضى إرادته الشرعية، {ولذلك خلقهم} أي خلقهم للاختلاف وللرحمة معًا.

إن فهم آية التعارف في إطار الاستخلاف يحتم علينا فهم الآية في إطار الاختلاف[27].

يقول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات: 13]. لقد جاء الخطاب في هذه الآية ليشمل الناس كافة، أي ليشمل كل إنسان مَستخلف على وجه البسيطة، وهي إشارة أخرى إلى ضرورة قراءة هذه الآية في ضوء الاستخلاف، فهي لم تصدر لا بقوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا» ولا بأي نداء يخصص الفئة المخاطبة. إن في قوله تعالى {إنا خلقناكم من ذكر وأنثى} تذكيرًا بالأصل المشترك بين بني آدم وفي قوله تعالى {وجعلناكم شعوبًا وقبائل} إشارة إلى الاختلاف.

وقد ذكرنا آنفا أن الاختلاف ليس دائمًا مظنة الائتلاف، فكم من اختلاف كان سببًا للخلاف، ولكن رغم أن الاختلاف لم يكن دائمًا مظنة الائتلاف فإن الله أبقاه بمقتضى مشيئته الكونية، وجعلنا شعوبًا وقبائل رغم قدرته على جعلنا أمة واحدة؛ يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾. لقد أبقانا الله مختلفين رغم كون الاختلاف مدخلًا إلى الخلاف؛ أبقانا مختلفين بمقتضى مشيئته الكونية، لكنه وبمقتضى إرادته الشرعية حصّن هذا الاختلاف بالرحمة؛ {إلا من رحم ربك}. فرحمنا بالاختلاف الآية ورحمنا من الاختلاف الخلاف، وكان من رحمته بنا أن أمرنا بالتعارف. إن تعرف الشعوب والقبائل بعضها على بعض هو فعل تواصلي بين ثقافات مختلفة، إنه حوار بين بيئات اجتماعية قد تتضارب بناها الفكرية، ولذلك فإن الإقبال على الآخر بهدف التعرف والتعارف قد يكون سببًا للتنافر والتناحر، فكيف حصن القرآن الاختلاف بالتعارف وكيف حصن التعارف بالتعارف؟

2- التعارف القرآني: بين مستوى الوسيلة ومستوى الغاية

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]. إن الناظر في هذه الآية التي استهلت بتوجيه الخطاب للناس أجمعين {ياَ أيها الناس} ثم استأنفت لتذكرهم بالأصل المشترك {إنا خلقناكم من ذكر وأنثى} ثم واصلت لتؤكد لهم حصول الاختلاف بينهم {وجعلناكم شعوبًا وقبائل} لا بد وأن يتأرجح في ذهنه التعارف بين كونه وسيلة وكونه غاية، فإذا كان التعارف غاية فما وسيلة تحقيقه

26- يقول الإمام شيخ الإسلام ابن تيمية: «ينبغي أن يعرف أن الإرادة في كتاب الله على نوعين: أحدهما: الإرادة الكونية وهي الإرادة المستلزمة لوقوع المراد، التي يقال فيها: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وهذه الإرادة في مثل قوله– تعالى: {فمن يرد الله أن ← يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقًا حرجًا}... وهذه الإرادة هي مدلول اللام في قوله: {ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم}... وأما النوع الثاني: فهو الإرادة الدينية الشرعية وهي محبة المراد ورضاه ومحبة أهله والرضا عنهم وجزاؤهم بالحسنى كما قال تعالى: {يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر} وقال: {ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ولكن يريد ليطهركم وليتم نعمته عليكم}». ابن تيمية، **دقائق التفسير**، الجزء 2 (دمشق: مؤسسة علوم القرآن، 1404)، ص 528.

27- ينظر عبد الرحمن السالمي، مرجع مذكور، ص 7.

وتحصينه في ظل عالم يسوده الاختلاف المفضي في كثير من الأحيان إلى الخلاف؟

إن أسئلة كتلك لا بد وأن تضعنا في حوار مع القرآن ومع منظومته المعرفية، ولا بد أن يدفعنا فضولنا المعرفي إلى أن نُقلب آيات القرآن ذات اليمين وذات الشمال، بحثًا عن أجوبة لاستشكالات تتمحور حول معهود القرآن في بسطه للغايات ومدى واقعية أن يسطر القرآن الغايات دون أن يحدد وسائل تحقيقها، ومدى معقولية أن يقدم القرآن كل «تعارف» على أنه غاية لوجودنا وغاية لاختلافنا حتى وإن كان هذا التعارف مظنة للخلاف الذي قد يفضي إلى ما لا يمكن أن يكون غاية للوجود وغاية للاختلاف. إن الإجابة عن هذه الاستشكالات المشروعة تقتضي منا إجراء استقراء للآيات القرآنية للوقوف على الكيف الذي يقدم به القرآن الغاية، ويحصن به المفهوم.

ولأن الاستقراء متعذر في هذا المقام فإني سأورد مثالًا لتوضيح المقال:

قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: 21]. إن الزواج في هذه الآية مفهوم منظم للاجتماع البشري، والسكن هو غاية الزواج ومقصده، فكيف قدم القرآن هذه الغاية وكيف حصّن مفهوم الزواج؟ إن مفهوم الزواج القرآني محصن بذاته وبغايته، أي أنه محصّن بالبناء اللفظي لكلمة «زوج» وبالغاية التي يفترض أن يؤديها الزواج والتي هي السكن، فبناء المفهوم القرآني للزواج يقتضي إذًا، أن يؤخذ اللفظ القرآني الدقيق بعين الاعتبار وأن يُضمّن السكن في مفهوم الزواج باعتباره غاية له. إن لفظة «زواج» تحمل معنى كثيفا فالزوج: «ما لا يكمل المقصود من الشيء إلا معه على نحو من الاشتراك والتعاون والتطهير»[28].

والزوج من خلال الآية: من كان السكن إليه متحققًا. والزواج: ما حقق للزوجين السكن إلى بعضهما.

ولدقة اللفظ القرآني فإن السكن باعتباره غاية للزواج قد تحددت وسيلة تحقيقه وضُمنت في الآية، فالسكن لا يتحقق إلا بوجود الزوج الذي لا يكمل المقصود إلا معه، والزوج لا يكون زوجًا إلا إذا تحقق معه السكن، وهكذا كان لفظ الزوج مجليًا لوسيلة تحقيق السكن وكان السكن مجليًا لماهية الزوج. كما أن العبارة القرآنية الدقيقة في قوله تعالى: «لتسكنوا إليها» جعلت معنى السكن واضح المعالم فلو قال – جل وعلا: [لتسكنوها]، لكان الزواج انصهارًا وذوبانًا في الآخر ولو قال [لتسكنوا معها]، لكان الزواج مجرد عيش مشترك ولكنه قال: [لتسكنوا إليها] لأن السكن إلى الآخر طمأنينة وقرار بغير ذوبان وانصهار[29]. فالنظام القرآني إذًا قائم على «البيان»، والبيان يقتضي أن يكون اللفظ مبينًا بذاته ومجليًا لما يحيط به من ألفاظ، ولذلك فإن من تمام بيان القرآن أن كانت ألفاظه مجلية لذاتها ولما حولها، وكان القرآن محصِّنًا للغايات بالوسائل المتضمنة فيها وللمفاهيم بالألفاظ المعبِّرة عنها.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: 13]. إن ما ذكرناه بشأن السكن والزواج يسري على التعارف، فقد جاء التعارفَ في هذه الآية غاية للاختلاف، وكان الاستشكال الذي افتتحنا به هذه الجزئية يدور حول إمكانية أن يعرض القرآن الغاية دون أن يؤطرها بالوسائل المحصنة والمحققة لها. والجواب عن هذا الاستشكال هو: لا، فعرض الغاية دون بيان الوسيلة لتحقيقها ليس من معهود القرآن، لأن من تمام بيان القرآن ومن تمام وضوح منظومته المعرفية وتماسكها، إن كان نظامه المعرفي مبينًا بقدر بيان ألفاظه، فبيان القرآن غير مقتصر على البيان اللغوي بل يتعداه إلى البيان المعرفي، ذلك أن بيان اللفظ وبلاغته هو دائمًا محض انعكاس لبيان المنظومة المعرفية التي أنجبت اللفظ.

28- أبو الحسن الحرالي المراكشي، مرجع مذكور، ص 175-176.

29- لمزيد من التعمق في معنى الزواج وماهيته انطلاقًا من المنظومة المعرفية للقرآن، ينظر: فريد شكري، **الأسرة في القرآن الكريم حصن بالعدل وحضن بالفضل** (الدار البيضاء: مركز الدراسات الأسرية والبحث في القيم والقانون، 2018)، ص 17-18.

ولذلك فإن الكلمة القرآنية وبسبب دقة استعمالها وكثافتها وسعتها البيانية تحمل دائمًا الماهية والكيف بين ثناياها، فالزواج والعبادة والعدل والقتال وغيرها من الألفاظ العربية حين تستعمل في القرآن يكون استخدامها الدقيق مبينًا لغويًا ومعرفيًا بيانًا لا يعلى عليه. لأجل ذلك كله وجب طرح السؤال: هل التعارف القرآني هو تعارف يقف عند الماهية دون بيان الكيف؟ وإذا كان الجواب هو: لا وهو حتما كذلك، فما المفهوم المبين للتعارف القرآني؟ إن النظام القرآني وخاصية البيان التي جاءت صفة لهذا الكتاب تقتضي أن يكون مفهوم التعارف القرآني واضح المعالم، كما تقتضي ألاّ ينسب المفهوم إلى المنظومة القرآنية إلا إذا كان واضحًا مبينًا بقدر بيان هذا الكتاب ونظامه. ولما كان المفهوم الدارج للتعارف غير مستوف لشروط البيان؛ ذلك أنه يفتقر للكيف الذي به يحافظ هذا المفهوم على غايته، كان من الضروري إعادة النظر في هذا المفهوم بما يتواءم مع نظام القرآن وبيانه.

إن المفهوم الدارج للتعارف يقف بالتعارف عند مستوى الغاية دون أن يحدد الوسيلة التي يحافظ بها المفهوم على بعده الغائي، ولا يعقل أن يكون كل تعارف غاية يقصد إليها القرآن الكريم، لأن القرآن إنما يقصد إلى ما به يتحقق التآلف بين البشر، ولا يمكن أن يقصد القرآن إلى ما قد يكون سبيلًا للخلاف والتناحر. فلما كان التعارف مظنة الخلاف، كان من تمام بيان القرآن أن يحدِّدَ الكيف الذي به يدبر الاختلاف لئلا يتحول إلى خلاف وأن يحدَّد الكيف الذي به يحصن التعارف لئلا يفضي إلى التناحر. لأجل ذلك كله، كان من الواجب واتساقًا مع النظام القرآني ومنظومته المعرفية، واستحضارًا لبيان القرآن وفصاحة جهازه المعرفي، أن تعاد صياغة مفهوم القرآن وفق ما يقتضيه البيان والنظام القرآني.

إن استحضار بيان القرآن يخرج إلى الوجود فرضية مفادها: ألا يمكن أن يكون التعارف في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ مفهومًا جاء ليحصّن الاختلاف من الخلاف، وليعزز الاجتماع البشري وينظمه؟ إن التعارف في هذه الآية واستحضارًا للبيان القرآني يفترض أن يتحقق فيه بُعدان: الأول هو بُعد الغاية والثاني هو بعد الوسيلة. أما بُعد الغاية فهو الذي أدركه جل المفسرين بقولهم إننا مأمورون بالتعرف على الحضارات الأخرى ومأمورون بمد جسور التثاقف. ويظهر هذا البعد حين نقرأ الأمر بالتعارف على أنه مقصد للاختلاف. وأما بعد الوسيلة فهو الذي غاب عن جل كتب التفسير، وهو ضرورة أن يكون التعارف لا مجرد غاية بل وسيلة لتدبير الاختلاف وتحقيق الائتلاف ومن ثم أداء واجب الاستخلاف.

إن إعادة قراءة مفهوم التعارف في ضوء الاستخلاف وتدبير الاختلاف يجعلنا ننظر إلى التعارف باعتباره مفهومًا منظمًا للاجتماع البشري؛ أي باعتباره غاية ووسيلة في آن واحد. لقد أمرنا الله بالتعارف باعتباره غاية للاختلاف، إلا أن من حكمة هذا القرآن ورؤيته البنائية للعالم أن جعل الغايات تستبطن في عمقها الوسائل، فاستبطن التعارف في عمقه الكيف الذي ينبغي أن يكون عليه هذا التعارف حتى يحقق المنتظر منه. إن النظر إلى التعارف باعتباره وسيلة لتدبير الاختلاف يجعلنا نقرأ التعارف على أنه في المستوى الغائي هو: التعرف على الآخر والإقبال عليه ومد جسور التثاقف معه، أما في مستواه الوسيلي فإنه يفترض أن يكون وسيلة تؤَمّن تحقيق المستوى الغائي.

إن فهم التعارف وفق النظام الاستخلافي الذي جاء القرآن ليرسيه لا يمكن أن يقف بنا عند المستوى الغائي للتعارف، لأن هذا المستوى لا يمثل أي إضافة حضارية للعمران، فالتعارف بالمعنى الغائي هو تحصيل حاصل، لأن طبيعة الإنسان الاجتماعية تدفعه إلى التعرف على الآخر، أي أنه ظاهرة كونية متحققة بمشيئة الخالق سواء حث عليها الآمر أم لم يفعل، ولذلك كان من تمام بيان القرآن أن يقدم الإضافة المنهجية والمعرفية بأن يرتقي ببناء مفهوم التعارف من البعد الغائي للتعارف إلى البعدين الغائي والوسيلي معًا. إذًا، ما البعد الوسيلي للتعارف الذي يحفظ للمفهوم غايته والذي يقتضي النظام القرآني أن يكون مضمنا في اللفظ نفسه؟

إن ما يحفظ المجتمعات البشرية عادة من التناحر وما يحفظ الجماعات الإنسانية من الخلاف هي القوانين والأنظمة والتشريعات التي يسنها المجتمع لضمان حق الفئات المكونة له، ولذلك فإن دخول الأفراد والمجتمعات في علاقات لا يمكن أن يترتب عنه التآلف إلا إذا انتظمت هذه العلاقات في قوانين وأنظمة تحفظ حق الجميع.

وبالرجوع إلى معاجم اللغة نجد أن «التعارف» يستبطن في مادته اللغوية معنى «المتفق عليه بين فئات معينة»، فالمعروف في اللغة: من العرف والمعروف وهو خلاف المنكر وما تعارف عليه الناس في عاداتهم ومعاملاتهم[30]. لذلك فإن هذا الاستبطان لا بد وأن يوقظ في أذهاننا احتمالية أن يكون التعارف في بعده الوسيلي هو تواضع الشعوب والقبائل على ما به يحققون التعارف الغائي. إن الواقع المحيط بنا يقدم جوابًا أوليًا عن هذا السؤال مفاده أن ما يحصن واقعيًا الاختلاف من الخلاف ويمكننا من ممارسة {الاختلاف الآية} الذي يعزز التنوع، كما يمكننا من تحقيق التعارف المفضي إلى التعاضد ومن صون التعارف عن الخلاف المفضي إلى التباغض، هو التزامنا بالأنظمة والقوانين والتشريعات المتعارف عليها.

ثالثًا- المفهوم بين التعبير القرآني والتعبير الإنساني

إن رؤية القرآن للعالم هي البوصلة الهادية التي يفترض أن يتم تصويب المفاهيم القرآنية في ضوئها، فهي العاصم من تأويل القرآن تأويلًا عربيًا بشريًا، أو لنقل هي العاصم من تأويل القرآن بالرأي غير أن هذه الرؤية لا يمكن تحصيلها وتحصينها ما لم نقرأ القرآن بلسانه. إن أسباب انحراف تلقي المعنى القرآني من الرؤية القرآنية إلى الرؤية العربية كان سببه – كما رأينا آنفا – الإسقاط المفهومي للمعنى العربي على المعنى القرآني لاتحادهما في الجهاز اللغوي.

1- لغة القرآن: بين المعهود العربي والمعهود القرآني

إن فهم القرآن وفق المعهود العربي[31] حجب عن المتلقي المعهود القرآني، وبات المتلقي للقرآن يقارن الصنعة اللغوية القرآنية بالصنعة اللغوية العربية، ويُنَصّب الصنعة اللغوية العربية مرجعًا يقيس بناء عليه جمال الصياغة القرآنية وجلالها. نعم، لقد فاضل المتلقي بين لغة العرب ولغة القرآن ونظر إلى القرآن على أنه اكتمال بدر البلاغة، لكن هذه المقارنة نفسها وإن كانت قد أعلت من شأن الصياغة القرآنية، فإنها قد وضعت الصياغة العربية في موضع النظير بالنسبة للصياغة القرآنية، لأن المفاضلة بين الصنعتين لم تكن مفاضلة نكتشف من خلالها خصائص كل صنعة، بل كانت مفاضلة تفاضل بين مستوى الأداء في صنعة رآها المتلقي واحدة؛ فصار يبحث في القرآن عن مظاهر استيفائه لشروط البلاغة والفصاحة المعروفة، فقيل بلاغة القرآن والصحيح أنها بلاغة العرب؛ أو لنقل بلاغة القرآن في محاكاة بلاغة العرب بتفوق.

2- لغة العرب مرجعًا ذوقيًا لمقاربة القرآن

يقول الإمام الطاهر بن عاشور: «لم أر غرضا تناضلت له سهام الأفهام، ولا غاية تسابقت إليها جياد الهمم فرجعت دونها حسرى... مثل الخوض في وجوه إعجاز القرآن، فإنه لم يزل شغل أهل البلاغة الشاغل... ولقد سبق أن ألف علم البلاغة مشتملا على نماذج من وجوه إعجازه، والتفرقة بين حقيقته ومجازه. إلا أنه باحث عن كل خصائص الكلام العربي

30- المعجم الوسيط، مادة عرف.

31- يقول الشاطبي: «إن القرآن نزل بلسان العرب وإنه عربي وإنه لا عجمة فيه، بمعنى أنه أنزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها، وأنها فيما فطرت عليه من لسانها تخاطب بالعام يراد به ظاهره، وبالعام يراد به العام في وجه والخاص في وجه، وبالعام يراد به الخاص، والظاهر يراد به غير الظاهر، وكل ذلك يعرف من أول الكلام أو وسطه أو آخره، وتتكلم بالكلام ينبئ أوله عن آخره، أو آخره عن أوله، وتتكلم بالشيء يعرف بالمعنى كما يعرف بالإشارة، وتسمي الشيء الواحد بأسماء كثيرة، والأشياء الكثيرة باسم واحد، وكل هذا معروف عندها لا ترتاب في شيء منه هي ولا من تعلق بعلم كلامها». أبو اسحاق الشاطبي، **الموافقات**، الجزء 2 (القاهرة: دار ابن عفان، 1997)، ص 103.

وفي هذا الكلام نظر كما ذكرنا في المتن أن القرآن متّحد مع لغة العرب في الجهاز ومفترق معها في الإنجاز، فهو على معهود العرب جهازًا لا إنجازًا.

البليغ ليكون معيارًا للنقد أو آلة للصنع، ثم ليظهر من جراء ذلك كيف تفوق القرآن على كل كلام بليغ بما توفر فيه من الخصائص التي لا تجتمع في كلام آخر للبلغاء حتى عجز السابقون واللاحقون منهم عن الإتيان بمثله»[32]. إن المسألة هنا هي فقط مسألة تفوق القرآن على الكلام العربي في خصائص استمدت من الكلام العربي، ونص الإمام الطاهر بن عاشور يثبت لنا أن لغة العربي واستعماله لها وأساليب بيانه هي المرجع، وبناء عليها تتحدد بلاغة القرآن.

إن لهذا الكلام أبعادًا شديدة الخطورة، فإذا كانت بلاغة القرآن تقاس بتفوقها على بلاغة العرب، فإن معنى ذلك أن القرآن ليس بليغًا بذاته وأنه دائم الافتقار إلى وجود المرجع الذي بناء عليه تقاس بلاغته. ولنفترض أننا أصبحنا يومًا لا نذكر من أساليب بلاغة العرب شيئًا، ففتحنا القرآن لنقرأه، هل سندرك حينها وجوه بلاغة هذا الكتاب؟ وهل سنستشعر حلاوة عبارته وطلاوتها دون أن يكون مرجعنا في الحكم هو المقارنة بين لغة القرآن ولغة العرب؟ وإذا كان الجواب بنعم وهو حتمًا بنعم، فلمَ ننصب أساليب العرب معيارًا للحكم على لغة القرآن؟ لم لا نقرأ القرآن وكأنه النص العربي الأول والأوحد في الوجود؟ وإذا جازت المقارنة بين لغة القرآن وغيرها من اللغات فإن الأصل أن القرآن متفوق على كل اللغات الإنسانية وأبلغ من كل عبارة تلفظ بها مخلوق، فإذا كان الأمر كذلك فإن الحديث عن تفوق البلاغة القرآنية على بلاغة العرب واستثناء اللغات الأخرى لا يثبت بلاغة القرآن وإعجازه وإنما يثبت فقط بلاغة القرآن على بلاغة العرب.

3- العمارة اللغوية القرآنية: خروج من لغة العرب عن لغة العرب

إن المقارنة بين فن العمارة اللغوية القرآني وفن العمارة اللغوية الإنساني يمكن أن يكون سبيلًا إلى إدراك أسرار لغة القرآن، لكن هذه المقارنة ينبغي ألاّ يكون مرتكزها هو إظهار التفاضل بين الاستعمال القرآني والاستعمال العربي للاستعارة أو للمجاز أو للإيجاز لأن ذلك لا يثبت إعجاز القرآن، فالتفاضل قائم في استعمال أساليب اللغة حتى بين الشعراء والعرب أنفسهم، وتفوق شاعر على آخر في توسل اللغة لا يثبت إعجازه ولا نُبوّته.

إن ما ينبغي البحث عنه حين المقارنة هو الجديد الذي جاء به القرآن ولم يكن للعرب به سابق عهد. يقول شهاب الدين القسطلاني: «إن إعجازه هو الوصف الذى صار به خارجًا عن جنس كلام العرب من النظم، والنثر، والخطابة، والشعر، والرجز، والسجع، فلا يدخل في شيء منها، ولا يختلط بها مع كون ألفاظه وحروفه من جنس كلامهم، ومستعملة في نظمهم ونثرهم، ولذلك تحيرت عقولهم، وتدلهت أحلامهم، ولم يهتدوا إلى مثله في حسن كلامهم»[33]. نعم، لقد خرج القرآن من لغة العرب، لكنه خرج عن لغة العرب. فحين خرج القرآن عن أجناس الكلام التي عرفها العرب، فإن الرسالة التي مُرّرت حينها وفهِمها العربي الأول كانت: أن هذا القرآن يشترك معكم أيها العرب في المادة لكنه يخالفكم في الصنعة ولهذا كانت الصدمة والدهشة تملآن كل لقاء حدث بين القرآن وبين المتلقي العربي الأول.

يقول د. طه جابر العلواني: «إن لسان القرآن يخرج اللفظ عن كونه مجرد لفظ؛ لأنه يحمّل اللفظ طاقات دلالية لم يعهدها أحد في تلك الألفاظ قبل نطق القرآن بها، فهو يفرغها ويملؤها، ويمنحها معان ما كان لشاعر أو ناثر أو مجموعة كبيرة من أساطين العربية أن تمنحها تلك الدلالات»[34]. إن اللفظ القرآني – وكما ذكرت آنفا – لفظ مبين و حَيّ، و يمتلك خصائص التمدد والتجدد الذاتي؛ وإن الكلمة القرآنية ولكونها كلمة مبينة فإنها تحمل بيانها فيها وتكشف عن معناها بنفسها. إن تفسير القرآن بالقرآن قبل أن يكون تفسيرًا لآية بآية أخرى فإنه تفسير لكلمة بنفسها، لأن الألفاظ القرآنية أقمار تنير نفسها أولا ثم تنير ما يجاورها، وتستمد نورها من شمس المنهجية المعرفية الناظمة للقرآن.

32- الطاهر ابن عاشور، **التحرير والتنوير**، الجزء الأوّل (تونس: الدار التونسية للنشر، 1984)، ص 101.

33- شهاب الدين القسطلاني، **المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**، الجزء 2 (القاهرة: المكتبة التوفيقية، د.ت)، ص 246.

34- أحمد بسام ساعي، **المعجزة إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم**، الجزء الأوّل (القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2012)، ص 15.

رابعًا- التعارف القرآني في ضوء لغة القرآن القاصدة

إن كلمة {زوج} مثلًا ولكون القرآن يستخدمها استخدامًا ينقلها من مستوى اللفظ إلى مستوى المصطلح، بحيث تؤدي نفس المعنى حيثما استخدمت في القرآن الكريم[35]؛ فإنها تحمل معناها داخلها. إن الزوج يحيل على معنى التكامل ومعنى الاتصال ومعنى الانسجام ومعنى التآلف، فهذه الكلمة الكثيفة المليئة بالمعنى ينبغي أن تفهم داخل السياق القرآني بناء على هذه المعاني الكثيفة التي حمّل بها اللفظ، إن توجيه اللفظ بناءً على البوصلة الداخلية التي يستبطنها اللفظ نفسه يقي المتلقي من توجيه اللفظ بناء على البوصلة الثقافية المضمرة في ذهنه. ما قلناه حول كلمة {زوج} نقوله بشأن كلمة {تعارفوا}؛ إن هذا اللفظ الذي انتقاه القرآن بعناية، يحمل بين مفاصله دلالات قوية ومعان كثيفة لم يستحضرها المفسر وهو يفسر هذا اللفظ تفسيرًا سطحيًا.

إن فعل التعارف مليء بمعاني الاتصال والسكون والطمأنينة والمعرفة والعرفان والمعروف[36] ووروده في القرآن على صيغة {لتفاعلوا} يحمله معنى إضافيًا هو الإقبال الدائم. إن هذا الجِرم الصغير {لتعارفوا} هو طاقة لغوية متنامية ومتحركة، وبناء على هذه الحياة وهذه الحركة الدائمة والدائبة ينبغي فهمه في السياق القرآني، وفهم ما جاوره من ألفاظ قرآنية.

1- التعارف من مستوى الاعتراف بالآخر إلى مستوى العرفان به

إن الاختيار الدقيق للألفاظ في الاستعمال القرآني، يؤكد أن لغة القرآن هي لغة قاصدة ولا مدخل فيها للاعتباط أو للعشوائية أو للعبث[37]، ومن مقتضيات هذه القصدية أن يؤدي اللفظ جميع المعاني التي تتحرك بداخله دون أن يغفل عن أي معنى منها. ولذلك، فإن إقامة مفهوم التعارف وفق اللغة القرآنية؛ يقتضي أن يستوعب المفهوم طاقة اللفظ وكثافته الدلالية التي يحتملها السياق، دون أن تبتر منه بعض أجزائه المعنوية التي تعزز المفهوم وتمتن دلالته.

وبناء عليه، فإن مفهوم التعارف القرآني لا بد وأن يستثمر الطاقة الدلالية للتعارف في كليتها، أي أن يستثمر معاني الاتصال والسكون والطمأنينة والمعرفة والعرفان والمعروف والعرف والإقبال الدائم، فلا يسقط من هذه المعاني ما يعزز مفهوم التعارف ويجلي دلالته. ولذلك فإن إقامة مفهوم التعارف وفق اللغة القرآنية، تقتضي أن يكون مفهوم التعارف محققًا للسكون والطمأنينة، وممتنًا لروابط الاتصال والإقبال الدائم، ومستثمرًا لمعاني المعرفة والعرفان والمعروف. إن المستوى الذي يتحقق فيه الجمع بين هذه المعاني والدلالات الكثيفة للتعارف هو النظر إلى كلمة {لتعارفوا} في بعديها الوسيلي والغائي لأن التعارف المحقق للإقبال الدائم والمعزز للسكون والطمأنينة؛ هو التعارف المصون عن الخلاف، وهو التعارف المدبر للاختلاف، وصون التعارف عن الخلاف – وكما ذكرنا آنفا – غير متحقق إلا في إطار معروف متعارف عليه.

إن التعارف الغائي حين يسدده ويؤطره التعارف الوسيلي يتحقق الإقبال على معرفة الآخر وعرفانه والتعارف معه على المعروف، فيرتفع الاختلاف ويحل الائتلاف وتتحقق الطمأنينة والسكون. إن إقامة مفهوم التعارف دون استيعاب الإمكانات المعنوية للفظ القرآني يجعلنا نقيم مفهومًا سطحيًا للتعارف يقف باللفظ عند المستوى الغائي له؛ أي عند مستوى الإقبال والتعرف على الآخر، دون تأطير هذا التعارف وتحصينه بما يحفظ هذا الإقبال والتعرف على الآخر من الإدبار أو الجور فيتأسس بذلك مفهوم للتعارف لا يحقق الطمأنينة والسكون ولا ينتقل بالتعارف من مستوى الاعتراف بالآخر[38] إلى مستوى عرفانه.

35- ينظر: أبو القاسم حاج حمد، مرجع مذكور، ص 53.

36- ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة، كتاب العين**، باب العين والراء وما يثلثهما، مادة: عرف (دمشق: دار الفكر، 1979).

37- يراجع في ذلك كتاب: عالم سبيط النيلي، **النظام القرآني** (بيروت: دار المحجة البيضاء للنشر والتوزيع، 2006).

38- جاءت إحدى مقالات: احميده النيفر، مرجع مذكور.

وتعقيبًا عليه أقول: إن منظومة القيم القرآنية لا تقف بالتعارف عند مستوى الاعتراف بالآخر بل ترتقي به إلى مستوى العرفان، لأن التعارف القرآني هو إقبال على الآخر والإقبال على الآخر هو عرفان لا مجرد اعتراف.

إن إقامة مفهوم التعارف ضمن ما يتيحه اللفظ القرآني من كثافة معنوية وضمن الإطار الاستخلافي العمراني الذي رسمه القرآن يقتضي منا النظر إلى التعارف باعتباره {وسيلة} و{غاية} في آن واحد؛ أي باعتباره تثاقفًا وتعرفًا على الحضارات الأخرى، وباعتباره تعارفًا وتوافقًا وتواضعًا على ما به يتحقق التثاقف والتعرف وما به يُنظّم الاجتماع البشري. والحقيقة أنه ما لم ينظر إلى التعارف في كلا بعديه فإنه سيظل فعلا أبتر، لا يحقق جدواه، لأن الوقوف عند المستوى الأول للتعريف باعتبار التعارف حوارًا للحضارات فقط، لن يحقق النتيجة المبتغاة ولن يرتقي بالتعارف من مستوى الاعتراف بالآخر إلى مستوى العرفان به. ثم إن تحقيق قيمة التعاون والتبادل الثقافي بين المجتمعات والحضارات غايات لا يمكن أن تتم إلا على يد مجتمع يستحضر عالمية الخطاب القرآني {يا أيها الناس} ويستحضر المشترك الإنساني {من ذكر وأنثى}، ويؤمن بالاختلاف {شعوبًا وقبائل} هذا المجتمع الذي يمد مع الآخر جسور التعارف ليدبر الاختلاف ويحقق التآلف.

2- التعارف القرآني مفهومًا بديلًا للتعايش والتسامح الإنساني

لماذا تقويم الوعي الإنساني في ضوء المفهوم القرآني؟

إن السؤال الذي قد يُطرح حين الحديث عن تقويم المفاهيم الإنسانية في ضوء المفاهيم القرآنية هو سؤال الجدوى، فلم النظر في القرآن؟ ولم اعتماد القرآن أساسًا في بناء المفاهيم الإنسانية؟ وما الخصوصية التي قد تتميز بها المفاهيم القرآنية وتفتقر إليها المفاهيم الوضعية؟ إن حاجة الإنسان للمفاهيم القرآنية ليست ترفًا فكريًا ينطلق من حماس المسلم تجاه القرآن، بل هي حقيقة تثبتها هشاشة العمران المفاهيمي الإنساني الوضعي. إن الناظر في مفهوم {التعارف} القرآني والمفاهيم الإنسانية التي تقابله في العمران المفاهيمي الإنساني كالتعايش والتسامح، يجد الفرق شاسعًا بين العمارة المفاهيمية القرآنية والعمارة المفاهيمية الإنسانية سواء على مستوى القالب اللغوي أو القلب المفاهيمي.

إن مفهوم التعارف في قوله تعالى: {لتعارفوا} ممتلئ بمعاني المعرفة والعرف والمعروف والعرفان، ممتلئ بمعاني الطمأنينة والسكينة والإقبال على الآخر، إنه مفهوم يتفجر بالمعاني التواصلية والاتصالية مع الآخر وذاك ما يفتقر إليه مفهوم التعايش ومفهوم التسامح. يقف مفهوم التعايش بالعلاقة مع الآخر عند مستوى تقبله وتحمله لأن لفظة {تعايش} لفظة فقيرة المعنى معوزة الدلالة، فالناظر في مادتها اللغوية يجدها لا تؤدي أكثر من معنى تحمل الآخر والعيش معه، فكأنه قبول للآخر على مضض. وما قيل بشأن مفهوم {التعايش} يقال بشأن مفهوم {التسامح}، إن التسامح يحمل معنى التساهل والسلاسة ولذلك فإنه لا يؤدي أكثر من معنى التغاضي والتجاوز عن الآخر. إنه مفهوم يحيل على التفضل على الآخر بالصفح، ويحيل كذلك على وجود ما يستدعي التسامح والتجاوز والتغاضي. إن هذا المستوى التواصلي الذي يقف عنده لفظا «التعايش» و«التسامح» لا يمكن أن يرقى إلى المستوى الذي يؤديه مفهوم التعارف القرآني، والذي ينتقل بالتواصل مع الآخر من مستوى قبوله إلى مستوى الإقبال عليه، ومن مستوى الاعتراف به إلى مستوى العرفان به، ومن مستوى العيش معه إلى مستوى السكن إليه.

نتائج البحث

يمكن إجمال النتائج التي توصل إليها البحث في:

- ضرورة التفريق في التعامل مع المدونات التفسيرية بين ما يمكن أن نعتبره «تمعينا» للنص القرآني، بمعنى إمداد للنص القرآني بالمعنى، وبين ما يمكن أن نعتبره استمدادًا للمعنى من النص، ولتحقيق ذلك لا بد من التمييز بين رؤية القرآن للعالم وبين رؤية العربي للعالم. فالمعنى القرآني الخاضعُ حين إنتاجه لثقافة المفسر وما يحدها من شروط الزمان والمكان لا يمكن أن يكون إلا تمعينا للنص، ولم يرقَ بعد إلى درجة الاتصاف ب «المعنى»، لأن المعنى القرآني لا يمكن أن يتصف بهذه الصفة إلا إذا تأطر المفسر حين استكشافه للمعنى برؤية القرآن للعالم، والتي لا يمكن تحصيلها وتحصنيها ما لم نقرأ القرآن بلغته الخاصة؛ التي اتحدت مع لغة العرب في الجهاز وافترقت معها في الإنجاز.

- الاحتراز من وصف المفاهيم ب«القرآنية» لمجرد كونها ألفاظًا قرآنية، لأن المفهوم لفظ ومعنى وما لم يكن اللفظ والمعنى قرآنيين فإن الحديث عن المفهوم القرآني سيظل سطحيًا، ويظل المفهوم حائمًا حول حمى القرآن لا يقع فيه، ولذلك كان من الضروري إعادة النظر في معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾. فهل يقف معنى الحفظ عند مستوى اللفظ أم يتجاوز ذلك إلى مستوى المعنى، حيث يستبطن القرآن بوصلة توجه المعنى وتقيه من التمعين والإسقاط المفاهيمي الذي قد يمارسه المتلقي دون وعي منه.

- ضرورة إعادة بناء مفهوم التعارف في ضوء النظام القرآني، شأنه في ذلك شأن كل المفاهيم القرآنية وذلك انتقالًا به من مستوى اللفظ القرآني إلى مستوى المفهوم القرآني، وارتقاء به من مستوى التمثل العربي إلى مستوى المثال القرآني، استكشافًا للمعاني الثانوية بين تفاصيل هذا اللفظ حين يُقرأ في بيئته القرآنية وعلى وفق لغة القرآن ورؤيته للعالم.

- ضرورة الانتقال بمفهوم التعارف من مستوى اللفظ القرآني إلى مستوى المفهوم القرآني، ذلك أن هذا الانتقال يظهر للوجود معان أخرى يكتنزها هذا المفهوم لم تكن قد استكشفت من قبل، إذ اتضح أن التعارف بمعناه القرآني ينتقل بالإنسان في علاقته مع الآخر من مستوى قبول الآخر إلى مستوى الإقبال عليه ومن مستوى الاعتراف به إلى مستوى العرفان به، ومن مستوى العيش معه إلى مستوى السكن إليه، وهي المعاني التي غابت عن من أطرته الرؤية العربية حين تلقي الآية، فوقف بالمفهوم عند أبعاد سطحية، وليس الحديث عن السطحية قدحًا فيما وصل إليه المفسرون، إنما هو مجرد وصف لما هو كائن، حيث ظل التلقي عند مستويات أولى للفهم لم تنفذ إلى أعماق اللفظ ودلالته.

- بناء مفهوم التعارف على أسسه القرآنية يتيح إمكانية إدراك البون الشاسع بين المفاهيم القرآنية وما يقابلها من مفاهيم إنسانية، حيث يظهر الفرق جليًا بين مفهوم التعارف القرآني وما ينضوي عليه هذا المفهوم من دلالات عميقة ترقى بالتواصل مع الآخر إلى مستويات الإقبال والعرفان والسكن، وبين مفهومي التعايش والتسامح اللذين اختيرا ليكونا نظيرين لمفهوم التعارف ولكن هزال بنيتهما الدلالية أبقاهما في مراتب دون التعارف بكثير، ما يحيلنا من جديد على مفهوم التصديق والهيمنة الذي لا يمكن أن يظهر جليًا ما لم نحافظ للمفاهيم القرآنية على صبغتها القرآنية الحاكمة والمهيمنة على الموروث الإنساني تفكيرًا وتعبيرًا.

خاتمة

إن القرآن الكريم هو كون مسطور يوازي الكون المنظور، فإذا كانت الحقائق الكونية لا تتجلى ولا تفهم إلا في إطار قوانين الكون نفسه، فإن للقرآن نظامًا وقوانين لا تفهم أسراره وحقائقه إلا في ضوئها. إن النظام القرآني يمثل ما يمكن أن نصطلح عليه بـ «البيئة القرآنية أو المجرة القرآنية»، وكل استدعاء لأجرام وكواكب من خارج الكون والمجرة القرآنية من شأنه أن يحدث خللًا في نظام هذا الكون المدوّن، فإذا كنا نروم استخلاص مفاهيم ومصطلحات توصف بأنها قرآنية، فإن السبيل إلى ذلك هو قراءة هذه المفاهيم والمصطلحات في مجرتها القرآنية. إن هندسة عقل الأمة وإعادة إعمار التفكير الإنساني في ضوء الهدي الرباني يستلزم استخلاص المفهوم القرآني الخام وإعادة تشكيل الوعي الإنساني وفقه.

إن فهم القرآن خارج النظام القرآني يجعلنا ننشئ قرآنًا جديدًا، ونهندس القرآن ونشكله ليوافق رؤية الإنسان للعالم أو رؤية العربي للعالم، فيكون القرآن حينها محكومًا لا حاكمًا. فإذا كنا نروم اليوم إعادة تقويم الوعي الإنساني في ضوء المفهوم القرآني، فإن ذلك يستدعي التزامنا بالنظام القرآني الذي ينتظم القرآن؛ لغة ورؤية للعالم وسياقًا داخليًا ومنهجية معرفية، لأن فهم القرآن وفق نظامه يجعلنا نقيم مفاهيم كثيفة المعنى وعميقة الدلالة، ولا أدل على ذلك من المفهوم القرآني للتعارف الذي ينتقل بالتعارف من مستوى قبول الآخر إلى مستوى الإقبال عليه، ومن مستوى الاعتراف به إلى مستوى عرفانه، ومن مستوى العيش معه إلى مستوى السكن إليه، وهي المعاني الدافقة التي تفتقر إليها المنظومة الوضعية الإنسانية التي تستعمل مفهوم التعايش والتسامح في مقابل مفهوم التعارف.

بناء على ذلك فإنني أقترح ما يلي:

تقويم منظومة المفاهيم الإنسانية في ضوء المنظومة القرآنية، وذلك بالاستعاضة عن المفاهيم الوضعية المفتقرة إلى المعنى الدال، بالمفاهيم القرآنية المتفجرة بالمعنى.

إعادة قراءة المفاهيم القرآنية كالقتال والقصاص والجهاد والزواج في ضوء النظام القرآني، إقامة للمفهوم القرآني وتقويما للفهم الإنساني.

العكوف على مراجعة التراث التفسيري للقرآن بهدف تخليصه من الرؤية العربية للعالم وتعويضها بالرؤية القرآنية للعالم.

المراجع

ابن تيمية، أبو العباس أحمد بن عبد الحليم. **دقائق التفسير**. الجزء 2. دمشق: مؤسسة علوم القرآن، 1404.

ابن عاشور، الطاهر. **التحرير والتنوير**. الجز الأوّل. تونس: الدار التونسية للنشر، 1984.

ابن فارس. **معجم مقاييس اللغة**. دمشق: دار الفكر، 1979.

البقاعي، برهان الدين. **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور**. الجزء 18. القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، 1984.

الثعلبي، أبو إسحاق. **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**. الجزء 9. بيروت: دار إحياء الثراث العربي، 2002.

الجابري، محمد عابد. **تكوين العقل العربي**. الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2000.

حمد، محمد أبو القاسم حاج. **العالمية الإسلامية الثانية: جدلية الغيب والإنسان والطبيعة**. بيروت: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع، 2004.

ساعي، أحمد بسام. **المعجزة إعادة قراءة الإعجاز اللغوي في القرآن الكريم**. الجزء الأوّل. القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 2012.

السالمي، عبد الرحمن. «التعارف والاعتراف والمصالحة التفاهم». **التفاهم العمانية**. العدد 36 (2012).

السمرقندي، أبو الليث. **بحر العلوم**. الجزء 3. بيروت: دار الكتب العلمية، 1993.

الشاطبي، أبو إسحاق. **الموافقات**. الجزء 2. القاهرة: دار ابن عفان، 1997.

شكري، فريد. **الأسرة في القرآن الكريم حصن بالعدل وحضن بالفضل**. الدار البيضاء: مركز الدراسات الأسرية والبحث في القيم والقانون، 2018.

الطبري، أبو جعفر. **جامع البيان في تأويل القرآن**. الجزء 22. تحقيق أحمد محمد شاكر. دمشق: مؤسسة الرسالة، 2000.

ابن عبد البر، أبو عمر. **الأنباه على قبائل الرواة**. القاهرة: دار الفكر العربي، 1982.

عبد الفتاح، سيف الدين وآخرون. **بناء المفاهيم دراسة معرفية ونماذج تطبيقية**. الجزء الأول. القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1998.

عناية، عز الدين. «الإسلام والديانات الإبراهيمية بين التعارف القرآني والتجربة التاريخية». **التفاهم العمانية**. العدد 36 (2012).

الغزالي، أبو حامد. **المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى**. قبرص: الجفان والجابي، 1987.

القسطلاني، شهاب الدين. **المواهب اللدنية بالمنح المحمدية**. الجزء 2. القاهرة: المكتبة التوفيقية، د.ت.

كوريم، سعاد. **سنة اللسان بين الجهاز والإنجاز وأثرها في تعيين القصد الشرعي**. أطروحة دكتوراه تحت إشراف محمد السيسي. مكناس: جامعة مولاي إسماعيل- كلية الآداب والعلوم الإنسانية، السنة الجامعية: 2011-2012.

الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود. **تأويلات أهل السنة**. الجزء الأوّل. بيروت: دار الكتب العلمية، 2005.

المراكشي، أبو الحسن الحرالي. **تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير**. الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، 1997.

النيفر، احميده. «منزلة التعارف والاعتراف في منظومة القيم القرآنية». **التفاهم العمانية**. العدد 36 (2012).

النيلي، عالم سبيط. **النظام القرآني**. بيروت: دار المحجة البيضاء للنشر والتوزيع، 2006.